العلاقة بين ابن خلدون وآدم سميث

أبو القاسم الطبولى (*)

من المعروف أن علم الاقتصاد علم حديث ، ومعظم الافكار الاقتصادية كانت متناثرة هنا وهناك قبل سنة ١٧٧٦ م عندما ألف آدم سميث كتابه المشهور « ثروة الامم » وحينما تذكر عادة هذه الافكار الاقتصادية تقارن بأفكار كتاب أوربيين ولكن فى الحقيقة أن الكثير من الكتاب المسلمين ساهموا بشكل مباشر أو غير مباشر فى هذه الافكار • وعندما يقال أن آدم سميث هو أبو الاقتصاد فان هذا يعتبر تجنى على هؤلاء الكتاب ، فهناك عديد من الكتاب كتبوا فى الاقتصاد قبل آدم سميث ولقد كانت مهمة آدم سميث منحصرة فى جمع هذه الافكار الاقتصادية وتنسيقها ووضعها فى كتاب واحد ، وقالب رائع •

ولعل من أهم الكتاب المسلمين الذين كتبوا فى الاقتصاد العلامة الكبير « محمد ابن خلدون » وفى هذه الورقة قمت بمقارنة أفكار ابن خلدون وأفكار آدم سميث فى ثلاث مجالات اقتصادية مهمة وهى : نظرية القيمة العمل ، ومبدأ تقسيم العمل ، ومراحل التقدم الاقتصادى •

وهذه الافكار الاقتصادية الثلاث بحثت من قبل ابن خلدون قبل أن تبحث من قبل آدم سميث وأكبر دليل على ذلك أفكار ابن خلدون الموجودة فى مؤلفاته •

ففى مجال نظرية القيمة العمل يرى ابن خلدون بأن العمل هو مصدر كل قيمة ، بينما النقود هى مقياس للقيمة • فهو يقول :

(*) معيد بقسم الاقتصاد بكلية الاقتصاد والتجارة .

« ان الله خلق الحجرين المعدنين من الذهب والفضة قيمة لكل متحول وهما الذخيرة والقنية لاهل العالم فى الغالب • وان اقتنى سواهما فى بعض الاحيان ، فانما هو قصد تحصيلهما بما يقع فى غيرهما من حوالة الاسواق التى هما عنها بمعزل فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة • واذا تقرر هذا كله فاعلـم أن ما يفيـده الانسان ويقتنيه من المحولات ان كان من الصنائع ، فالمفاد المقتنى منه هو قيمة عمله وهو القصد بالقنية اذ ليس هنالك الا العمل ، وان كان من غير الصنائع فلا بد من قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذى حصلت به اذ لولا العمل لم تحصـــل قنيتها » •

ومن هذا يتبين لنا أن ابن خلدون يرى بأن العمل هو مصدر كل قيمة ولولا العمل لما كانت هناك أى قيمة •

أما آدم سميث فهو يرى بأن العمل هو المقياس الحقيقى للقيمة بينما النقود هى المقياس الطبيعى أى أن النقود هنا تعبر عن العمل • فالعمل عند آدم ســميث هو مقياس للقيمة وليس مصدرا للقيمة •

أما فى مجال مبدأ تقسيم العمل فان ابن خلدون كان سباقا فى هــذا المجال حيث أنه يرى بأن انتاجية العامل تزداد بتقسيم العمل وكذلك آدم سميث الا أن آدم سميث بحث فى تقسيم العمل مباشرة بينما ابن خلدون بحث مبدأ تقسيم العمل باستخدام ما يسمى بالتعاون « فابن خلدون يرى بأن حاجة الانسان تدفعه الى أن يتعاون مع الآخرين ويقسموا العمل فيما بينهم لزيادة انتاجهم ولعل كلام ابن خلدون فى كتابه « المقدمة » أكبر مثل على ذلك فهو يقول « الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته فى معاشه وأنهم يتعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك • والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الاكثر من عددهم أضعافا •• » فلقد ضرب لنا ابن خلدون مثلا بانتاج الحنطة فهو يرى بأن شخصا يقوم بصنع آلــة الحرث وآخر بتربية الحيوانات وثالثا يصنع آلة الحصاد •• الخ ، فــكل منهم يتخصص فى شىء معين وفى النهاية يقوموا بجنــى محصــولهم الذى يفوق كثيرا حاجتهم • وكذلك آدم سميث يرى بأن تقسيم العمل مهم جدا وهو يؤدى الــى

زيادة الانتاج فأفكار ابن خلدون هى نفس أفكار آدم سميث فى مجال تقسيم العمل ولا خلاف بينهما فى هذا المجال •

أما فى مجال مراحل التقدم الاقتصادى فابن خلدون يرى أن المجتمع يمر من مرحلة البداوة الى مرحلة التحضر وكذلك آدم سميث يرى بأن المجتمع يتطور من المجتمع البدائى الى المجتمع المتحضر وهذا الانتقال من المجتمع البدائى الى المجتمع المتحضر تحكمه الحياة الاقتصادية عند كليهما • فالانتقال من البداوة الى الحضارة تتم بواسطة ارتفاع مستوى المعيشة ومن ثم فان الانتقال يكون من مجتمع اقتصادى يقوم على المقايضة الى مجتمع اقتصادى يقوم على النقود أى اقتصاد سوقى •

والحضارة عند ابن خلدون كما عند آدم سميث هى المرحلة الاحسن بالنسبة للمجتمع ولكنها ليست النهاية بالنسبة للانسانية وبالطبع هذه الافكار نابعة من فلسفتهما • ولو تأملنا فلسفتهما للاحظنا بأن مراحل التقدم الاقتصادى تحليلية وتاريخية بالنسبة لآدم سميث بينما هى تاريخية وضرورية عند ابن خلدون • والمجتمع الحضارى هو مجتمع تجارى فى نظر آدم سميث وهو يقوم على أساس تقسيم العمل •

وعلى كل فان أفكار ابن خلدون متقاربة مع أفكار آدم سميث فى كل هذه المجالات التى تعرضنا اليها وليس هناك من اختلاف الا فى مجال نظرية القيمة العمل •

بعد هذا الاستعراض الموجز نستطيع أن نخلص الى أن ابن خلدون سبق آدم سميث فى كثير من الافكار الاقتصادية ولقد عبر ابن خلدون عن هذه الافكار باللغة السائدة فى عصره •